ليلة أخرى؛ لكنها ليست كباقي الليالي، ففيها تتوافد قوافل الصائمين للإعلان عن مسيرة جديدة بعد شحنة إيمانية عظيمة من مدرسة شهر رمضان المتجدّدة عامًا بعد عام، وهذه المسيرة ميّزت الناس إلى أصناف كثيرة تباينت مقاماتهم بحسب حسن تعاملهم مع الشهر الفضيل، فمن قصَّر فقد فاته من الخير ما لا يعلمه إلّا الله ، ومن استثمر الشهر فقد استحق الفوز بالعيد وما فيه من الكرامات، والثابت أن القرآن الكريم عنى بهذه المناسبة وذكرها بصريح العبارة، إذ قال تعالى على لسانِ عيسى (عليه السلام) : {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [المائدة: ١١٤]، ففي هذا الخطاب القرآني تتّضح دلالة العيد وأن التكرار ماهيّة واضحة للعيد؛ باعتبارهم طلبوها ليعيدوا فيها و يستذكرونها في كل عام فهو لأوّلهم وآخرهم جيلًا بعد جيل.

إن فرحة العيد تنسينا مشقّة الصوم وساعات الجوع والعطش، وهذا الأمر فيه من العبرة ما يناسب أن نتعلّم منه بأن مشقّة الطاعة تنتظرها فرحة اللقاء بين العبد ومولاه، وأن المعصية مردّها الفضيحة كما المفطر الذي فاته الشهر الفضيل، وهذا بحدّ ذاته ينمّي الطاقة الإيجابية التي نحتاجها عامًا بعد عام لنصبر على الشهر الفضيل؛ بل إن نماء الطاقة الإيجابية دفعت بالمؤمنين ليستأنسوا بلذّة الجوع والعطش بعد أن أدركوا أنهم بعين الله وتنتظرهم كرامات كثيرة وعد الله بها عباده الطائعين، وأوّلها فرحة العيد، فللصائم فرحتان كما أفادت الروايات واحدة عند الإفطار وأخرى عند لقاء الكريم جلّ وعلا.

وعلى الرغم من أن العيد ممارسة عبادية إلّا أن الله تعالى لم يجعلها من دون ضوابط وأحكام؛ فيبدأ العيد بليلة عظيمة تتخلّلها كثير من الدعوات والطاعات؛ ليتأهّل المكلّف إلى استقبال يوم العيد العظيم، والله تعالى حبا العيد بصنوف التشريف بعد أن خصّصه موسمًا للطاعة يبدأ بالغسل كإشارة إلى التطهير والرقي، ويرتقي إلى مختلف العبادات المتنوّعة التي يتوفّق إليها من أخلص لله تعالى في دعوته ومناجاته،

ويتغافل عنها من كان همّه انقضاء الشهر بعد أن أفرط في التسويف ولم يتوفّق إلى التوبة حتى فاته الشهر فكان ممن تهدّد بقول رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): (من لم يغفر له في رمضان فلن يغفر له إلّا إلى قابل أو أن يشهد عرفة).

إن فرصة العيد كبيرة لنكون ممن نظر إليهم الله تعالى فغفر لهم، ومن المناسب أن ندرك أن الله تعالى جعل بعض السلوكيات الاجتماعية عبادة في العيد، ومن ذلك التسامح والتزاور والتودّد والإهداء، ولاسيما مع من نجح الشيطان بخلق فواصل بيننا وبينهم، فموسم العيد العائد علينا جميعًا بالمغفرة والقبول فرصة للاستثمار الأخلاقي والاجتماعي، وإن فرصة توزيع الصدقات أو زكاة عيد الفطر يمنح قوة وصلابة وتماسكًا للمجتمع الإسلامي انسجامًا مع الرؤية الإسلامية والتربية القرآنية؛ لنصل إلى أن المسلمين كالجسد الواحد يكمل بعضهم بعضهم الآخر.

إن العيد من جوائز الله تعالى لعباده المطيعين والصائمين؛ فليس من المناسب أن يسرف بعضنا فيه بالمعاصي ؛ بل علينا أن نحافظ على المكتسبات الإيمانية التي متَّعنا بها الشهر الفضيل، وينبغي أن ندرك أنه كلما وقفنا عليه من المقامات والدرجات أمانة في أعناقنا وعلينا أن نحافظ عليها، وعلينا أن نكون أكثر حذرًا؛ لأن الشيطان ماهر في أن يجرّنا إلى مستنقعات الفساد والمعصية بوسائل مهنيّة فنضيِّع ما تمّ بناؤه من العلاقة الصالحة والحسنة بيننا وبين ربنا الذي أكرمنا بأن جعلنا من أهل الشهر الفضيل؛ ليغدق علينا بجوائزه الكريمة، ويفتتحها بالعيد الذي نطمح أن يكرره علينا ونحن على سلامة من الدين والدنيا إنه سميع مجيب.